تطور البصرة العمراني في العهد العثماني الأخير ١٢٤٧ هـ/ ١٣٨١ م ـ ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م

د. تيسير خليل محمد الزواهرة
استاذ التاريخ الحديث مشارك
قسم التاريخ ـ جامعة مؤتة
الكرك- الأردن

الملخص

يهدف الباحث الى بيان التطور العمراني في البصرة في العهد العثماني الاخير ، وقد اخذت اربعة عناصر لتوضح هذا الهدف ، وهي الاسوار ، والمحلات والطرق والجسور ، ثم الميناء .

تبين ان هذا التطور قد تأثر بعدة عوامل طبيعية وبشرية كالاوبئة والحياة الصحية ، والادارة العثمانية ،والاضطرابات الداخلية والهجمات الخارجية (الايرانية والبدوية) ، والوجود البريطاني في الخليج العربي .

وقد اعتمدت الدراسة على المصادر الاولية من مخطوطات وسجلات شرعية ، ورحلات اجنبية ، وكذلك الدراسات الحديثة بالعربية والانجليزية .

ويوصي الباحث بمتابعة دراست مقارنة للبصرة العثمانية مع المدن العربية الاخرى لتبين القوة والضعف في كل منها .

(Abstract)

The author aims at exploring the Bassuras quarters development during the late Ottoman era (1831-1914). Foour Categories have been taken in this respect : The Walls, quarters (al- Mahallat), Roads and bridges, and the port (al-Mina).

Many natural and human influences affected Bassura's developments Such as the administrave, epidemics and hygienic situations, riots and outer invasions. And finally the British existence in the Arab Gulf. .

primary and secondary sources such as Law-Court registers , travel books. and year books(Salnamat), were consulted .

The final recomendation of this paper is to make Comparative studies between Bassura and other Ottoman cities.

تمهيد :

يقتصر هذا البحث على قضاء البصرة في العهد العثماني الاخير ١٢٤٧هـ/١٨٣١م-١٣٣٣هـ/١٩١٤م ، كونه يمثل احدى الحواضر النشطة في الدولة العثمانية ، في فترة ازدياد النفوذ الاجنبي في اقنائها ، بعد تردي حالتها حتى صارت تدعى برجل اوروبا المريض ، بالرغم من وجود احد اقوى سلاطين بني عثمان في فترتهم الاخيرة وهو عب الحميد الثاني [١].

وقد تبينت للباحث اهمية ولاية البصرة العثمانية عموما ، وقضاء البصرة بوجه خاص من خلال قراءاته العامة في تاريخها الحديث[٢] ، ثم تعززت اهميتها اكثر بعد اشرافه على رسالة ماجستير عن البصرة في هذه الفترة [٣] ، ومن خلال تدريس عدة موضوعات خاصة بتاريخ الخليج العربي الحديث[٤] .

وتكتسب ولاية البصرة [٥] اهميتها من وقوعها على راس الخليج العربي شمالا ، وهي المنفذ المائي الوحيد من الولايات العثمانية العراقية واليها ، ولازالت الى الان منفذ العراق المائي الوحيد ، ولم يكن للبصرة بلوغ الشهرة التجارية الواسعة دون هذا الموقع الاستراتيجي وتحكمها باحد اهم طرق التجارة الدولية التي تربط الشرق الاقصى باوروبا ، حيث يتفرع من هذا الطريق ثلاثة اتجاهات فاما احدها فالطريق البحري الذي يربطها بموانىء الخليج العربي وقاعدته الرئيسة جزيرة خرج في الخليج نفسه ، وثانيها طريق البصرة بغداد عبر نهري دجلة والفرات ، ويوازيه تقريبا طريق البصرة حلب الصحراوي ، وثالثها بري البصرة - القرين (الكويت الحالية) ثم الى داخلية الجزيرة العربية وفرع اخر منه هو طريق الدرهمية الحج باتجاه برهمية وجبل سنام[٦] ، وهي اخر تجمع سكاني مهم بين شمالي الخليج العربي وحتى امارات الساحل العماني[٧] ، وبها وبغداد كان منوطا الدفاع عن داخلية الجزيرة العربية وسواحلها اثناء الصراع مع البرتغاليين في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، وكذلك في الصراع مع الصفويين[٨]، ولمواجهة الحركة الوهابية في القرن الثاني عشر الهجري / القرن الثامن عشر الميلادي[٩] . كما تكتسب اهميتها من مركزها التجاري ، حيث كانت

مركز استقطاب للبضائع من مختلف الاقطار ، ثم يعاد تصديرها الى المناطق ذات الصلة او الحاجة [١٠].

تقع البصرة بين خطي طول ٤٥-٤٧ شرقا ، ودائرتي عرض ٢٥-٣٠ شمالي خط الاستواء [١١]، وهي في موقع وسط بين ولاية بغداد شمالا ، وعربستان شرقا ، والكويت وان كانت جزءا من اللواء جنوبا بغرب[١٢] ، ويحد اللواء من الشمال الشرقي لواء العمارة ، ومن الشمال الغربي لواء المنتفك ، ومن الغرب صحراء بادية الشام ، ومن الجنوب الخليج العربي ومن الشرق ايران وعربستان[١٣] ، وتبلغ مساحته نحو واحد وعشرين الف كيلو متر مربع (٢٠٧٢٠كم٢)[١٤] ، وبالتالي فأن اللواء يقع وسط الولاية العثمانية المعروفة به[١٥].

ولاتختلف تضاريس اللواء الجغرافية عن تضاريس العراق الجنوبي بشكل عام، اذ تتكون ارضه من سهول رسوبية مستوية تخترقها وديان وانهار كثيرة ولكنها ضحلة ، وصالحة لسير القوارب الصغيرة (الابلام حسب التسمية المحلية) [١٦] ، وسهل البصرة متدرج الارتفاع من مترين ونصف عند البصيرة الواقعة شمالي الخليج العربي ، الى ثمانين مترا فوق مستوى سطح البحر عند بغداد[١٧] كما يدخل ضمن اراضي اللواء جزء من بادية الشام الممتدة بين السعودية حاليا ونهر الفرات ، واعلى جبال هذه المنطقة جبل سنام (١٣٥مترا) ، كما يخترقها عدد من الاودية المعروفة باسم الشعبان ، والكثبان الرملية .[١٨]

معالم البصرة العمرانية :

هناك معالم عمرانية كثيرة يمكن اخذها للتدليل على التغير العمراني في البصرة العثمانية في عهدها الاخير ، يذكر منها الاسوار ، والمحلات او الاحياء ، والطرق والجسور والميناء ، ودور العبادة والمنشآت الدينية كالتكايا والزوايا ، والمراقد ، والمقابر ، والاسواق ، والخانات ، ودور العلم ، والمنشآت الصحية والحمامات ، ودور الحكومة ومؤسساتها ، والمقاهي واماكن اللهو ، وستفصل الدراسة في اربعة منها فقط هي :

الاسوار والمحلات والطرق والجسور ، والميناء .

الاسوار :

يمكن ملاحظة ان ثلاثا من مراكز لواء البصرة الحضرية هي مدن : البصرة والزبير ، والقرنة كانت مسورة .

فأما البصرة فقد احيطت بسور يتلوه خندق عميق ، وبلغ سمك ذلك السور بين ستة امتار الى سبعة ونصف [١٩] ، وبلغ طوله ستة كيلومترات من الشرق الى الغرب ، ونحو خمسة كيلو مترات من الشمال الى الجنوب [٢٠].

واما سور بلدة الزبير فقد بني ، كما يذكر محمد خليفة النبهاني سنة ١٢١١هـ/١٧٩٥م بأمر من والي بغداد ليحيي بن الزهير امير الزبير ، وللمحافظة عليهامن هجمات الوهابيين ، وكان ناظر البناء القاضي ابراهيم بن جديد لانه كان المقدم عند ال زهير امراء الزبير[٢١]. ويؤكد هذا التاريخ محقق كتاب تاريخ حوادث بغداد والبصرة وانه تم بأمر الوالي سليمان باشا الكبير في بغداد[٢٢] .

ولكن ترد تواريخ اخرى للبناء والتجديد،ومنها ١٧٧هـ /١٧٦٣م [٢٣]، و١٢١٣هـ/١٧٩٧م ، وانه جدد سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م [٢٤] لكن الراجح هو التاريخ المثبت اولا ، كون النبهاني ومحقق تاريخ حوادث بغداد والبصرة يعللان سبب الانشاء بالهجمات الوهابية التي كانت ناشطة في تلك الفترة من ناحية ، وكون النبهاني وهو المستقصي لتاريخ ولاية البصرة في التحفة لم يذكر شيئا عن التواريخ الاخرى، ولكن هذا لايمنع ان يكون السور جدد سنة ١٢١٣هـ ، وسنة ١٢١٧ هـ بسبب توالي الهجمات الوهابية في هذه الفترة ، ولكن لايوجد مايسوغ التاريخ ١١٧٧هـ/١٧٦٣ م . وقد بقي سور الزبير قائما الى مابعد الحرب العالمية الاولى[٢٥] .

واما بلدة القرنة فقد بنيت في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، واحيطت بسورين في القرن التاسع عشر لمقاومة الهجمات الايرانية [٢٦]، ويذكر هاشم التكريتي ان السواح الاجانب قد ذكروا القرنة منذ القرن السادس عشر[٢٧] .

وبالرغم من وصف الرحالة الأجانب لسور البصرة بانه ليس اكثر من سور خرب لمدينة مهجورة فضلا عن كونه لمدينة مأهوله كالبصرة [٢٨]، وانه لايقوي على مقاومة الهجمات العسكرية ، وقد يصلح لمقاومة هجمات الاعراب القادمين من الصحراء [٢٩]، فان مواصفات بناء ذلك السور تشير الى انه كان امنع مما يصف الرحالة ، وانه كان فعلا لمقاومة الغزو العسكري ، خاصة الايراني . فقد كان الخندق المحيط بالسور حين يملأ بالماء من شط العرب يشكل عائقا مائيا صعب الاجتياز على الامكانيات العسكرية آنذاك[٣٠] ، كما ان السور كان مجهزا بفتحات في اعلاه ومن مختلف جوانبه بفتحات للمدافع والرماح،وكذا فقد عزز بالابراج المستديرة للمراقبة[٣١]،وبحصون وابواب في الجهات الاربع[٣٢].ويؤيد هذا ايضا بقول بارسونزPARSONS ١٧٧٥م بأن اساسات السور كانت قوية ومتينة ومبنية من اللبن المجفف الذي يوازي علوه مستوى سطح الماء المجاور في الخندق[٣٣]

وكان لتلك الاسوار ثمانية معاقل (مزاغل) فيها ثماني بنادق نحاسية ، واثنى عشر مدفعاً ، بالاضافة الى نحو خمسين مدفعا لكل معقل[٣٤] ، لكن يذكر الاسدي ان في كل مزغلة ثمانية مدافع وليس اثني عشر[٣٥] كما كان السور الزبير فتحات خاصة للمدافع[٣٦].

وبالرغم من ذكر بعض الرحالة لسوء حالة ابواب مدينة البصرة الخمسة ، فأن تتبع مواقع هذه الابواب يفيدنا في معرفة اتجاهات المدينة وبيان علاقاتها بالعالم الخارجي ، وبالتالي مناطق العمران فيها . والابواب هي : باب المجموعة او المجموعي او المجمعة ، وهو في الناحية الجنوبية من البصرة ، حيث ينفذ منه الى جنوبها نحو الخليج العربي من خلال وقوعه على نهر صغير متفرع عن نهر الخورة ، ويقع بابا السراجي في المحلة المعروفة بأسمه ولعله منسوب لصانع سروج في تلك المحلة فنسبت اليه ، وهذا يدل على اهمية هذه الحرفة ودور ذلك الرجل فيها ، وباب الزبير وهو باتجاه قضاء الزبير ، وباب الرباط وهو مسمى لبابين في الشمال والشمال الغربي ، وباب بغداد وهو يؤدي الى مركز المدينة

التجاري [٣٧]، وهناك باب سادس بين باب بغداد وباب الزبير سماه بكنغهام باب بكنا وهو لايظهر على خارطة نيبور[٣٨] .

وما يصدق على ابواب سور مدينة البصرة يصدق على ابواب سور مدينة الزبير ، فقد كان للسور اربعة ابواب تغلق وتفتح في اوقات معينة ومخفورة باستمرار،وهي : باب الحزم وفتحته باتجاه الصحراء ، والدريهمية في جنوبي البلدة باتجاه الخليج العربي حيث آبار الدريهمية ، وباب البصرة في شرقي السور باتجاه البصرة ، وباب ابراهيم في الشمال باتجاه الناصرية[٣٩] .

المحلات (الاحياء) :

كان لواء البصرة يتألف من ثلاثة اقضية هي : البصرة ، والقرنة ، والكويت[٤٠] ، وشمل قضاء البصرة خمس نواحي هي : الزبير ، وابي الخصيب ، وشط العرب ، والهارثة ، والفاو[٤١] . وقد قسمت هذه المدن والنواحي الى محلات[٤٢] او احياء ، كانت تنسب اما الى شخص ، او الى عائلة ما ، او الى طائفة حرفية او عرقية ، او لنهر وماشابه ذلك[٤٣] ، وكانت كل محلة منوطة اداريا بمختار[٤٤] او اكثر [٤٥].

ويقسم نهر العشار مدينة البصرة الى قسمين ، احدهما غربي شط العرب على نهاية نهر العشار ، وتتركز فيه معظم دوائر الحكومة في الولاية ، علاوة على مقر الحكومة ، واغلبية محلات البصرة [٤٦]، والقسم الثاني ويدعى ضاحية مقام علي ، ويقع على نهاية نهر العشار على جانبيه بالقرب من المصب [٤٧].

ويلاحظ ان هذا القسم بدأ يزدهر في عهد الوالي مدحت باشا ، بعد ان امر ببناء مقر حكومة الولاية الجديد فيه (سنة ١٨٧٠م) ، ويعود السبب الى طيب هواء هذا القسم مقارنة مع القسم الاول ، كما انشأ ادارات حكومية اخرى فيه ، ومنها دائرة الكمارك ، واخذ يشجع بكل الوسائل بناء الدور هناك ، وتأجير الاراضي الاميرية تأخيرا طويل الامد[٤٨] كذلك اخذت الشركات الاجنبية العاملة في البصرة تقيم مقرات ومؤسسات لها [٤٩]لكن توقف التوسع في هذه المحلة بعد

ذهاب مدحت باشا ، وشعور السكان بعدم الامن في الضاحية الجديدة التي اصبحت مهددة من القراصنة من ناحية ، وعدم اهتمام الولاة التالين بمسالة التوطين كناصر باشا السعدون المنتفكي ، الذي لم يكتف باهمال الموقع الجديد والدعوة الى البقـــاء في البصرة نفسها (المقر القديم) ، بل شدد في اوامره على السكان بعدم الســـكن خارج حدود المدينة ، كما اعاد مقر الحكومة المعـــروف بالقونـــاق الـــى المقـــر القديم [٥٠]. ولكن مما خفف من حدة التراجع في توسع ضاحية مقام علي استمرار الشركات الاجنبية الملاحية والتجارية في اقامـــة مقراتـــها ومؤسســـاتها فيـــها ، بالاضافة الى دور القنصليات الكبير من خلال استقرارها في الضاحية الجديـــدة ، مثل قنصلية بريطانيا سنة ١٨٧٢م[٥١]. وكذا فقد استقر كثير من الاشخاص ممـــن لهم صلة بالميناء وحركته [٥٢]، وسارت وتيرة التطور متسارعة في هذه المحلـــة في اواخر ق١٩ واوائل ق٢٠ حتى بلغ عدد سكانها بين عشرة الاف الى خمســـة عشر الفا ، وبنيت فيها قصور الاثرياء العرب والاجانب[٥٣] ، وتواصـــل البنيـــان حتى اتصلت بالمدينة الرئيسة مع نهايات القرن ، وأسهم الوالي سليمان نظيف بك عام ١٣٢٧هـــ /١٩٠٩م ، في تطوير اللواء بمده خطا بريا بين البصرة الاصليـــة ومقام علي واقام مخفرا للشرطة على الطريق البري[٥٤] واسس احد الارمن ســـنة ١٣١٥هـــ/١٨٩٧م خط نقل بري من عربات تجرها الخيول بين البصرة والمقام ، كما اسست شركات نقل اخـــرى مماثلـــة[٥٥] ، فـــي ســـنة ١٣١٩هـــ/١٩٠١م ،١٣٣٦هـــ/١٩١٨ ، ١٣٤٠هـــ/١٩٢٢ [٥٦].

وبذلك انتقل المركز التجاري مع بداية القرن العشرين الى ضاحية المقام ، حيث ضمت دائرة الحجر الصحي وامیناء، ومكاتب الشركات الاجنبية ، وثكنات العسكر البحرية والبرية ، وانشئت الجسور على الانهار مما فتح احيـــاء البصـــرة على بعضها [٥٧].

وبالرغم من ذلك فان لوريمر يصف البصرة بانها بلدة غـــير منتظمـــة البناء ، وغير مترابطة الاحياء ، ولعل كلامه هذا مبني على التباعد بين القســـمين قبل الطريق الذي انشأه الوالي سليمان نظيف بك ، لانعدام الطرق البرية الداخلية ،

كما انه يصف المدينة بأنها في حالة متهدمة [٥٨] وبغير دفاعات ، وهذا الوصف كما ذكر باعلاه قبل التسارع مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وابدى الشيخ الانصارى ملحوظة قريبة من ذلك حين عرض لفقدان الامن والاستقرار في البصرة ، وطالب بتوفيرهما واجابة احتياجات البصرة كي تبقى مزدهرة [٥٩].

ويذكر نيبور ثلاثا وسبعين محلة من محلات البصرة [٦٠]، بينما يذكر عبد الواحد باش اعيان اربعا وعشرين محلة [٦١]، واما النبهاني فيذكر ثلاثين [٦٢] محلة هي : القبلة والبلوش ، والباشا ، والسيف ، وسوق الدجاج ، والمشراق ، والحكاكة ، وجسر العبيد [٦٣] ، وبستان القصب ، وعز الدين ، والقطانة ، وابي الحسن، والمجصة ، ويحيى زكريا ، وجسر الملح ، والسيمر (سكة بني سمرة) والفرسي ، والعباس ، والكزارة ، ومناوي باشا ، وهذه المحلات كلها واقعة جنوبي نهر العشار ، واما التي على الجهة الشمالية منه فهي : نضران والصبخة الصغير ، والصبخة الكبير ، والمعصرة والخضر، والساعي ، وهي آخر البصرة من جهة الشرق ، حيث يبتدىء العشار واوله : محلة ام البروم ، والقشلة ، والمقام ، والدوب [٦٤].

ويمكن الاجابة على التساؤل لم هذا التباين في عدد المحلات بالقول : ان بعض المحلات قد اختلطت بغيرها مع بداية القرن العشرين نتيجة التطور العمراني كجسر العبيد والقصب ، وصارت تعرف بالخليلية [٦٥] ، كما تراجعت اهمية محلات اخرى بسبب اضطراب حبل الامن احيانا ، وحدوث الاوبئة والكوارث احيانا اخرى كما حصل في طاعون ١٨٣١م، وتدني نوعية البناء والمواد الداخلة فيه وعدم قدرتها على مواجهة عاديات الزمن ، مما يؤدي الى هجران اهل المحلات لها ، او تقلص اهميتها [٦٦]، ولكن ذلك لاينفي قيام محلات جديدة كالصبخة الكبيرة التي تكونت من ثلاث محلات فرعية [٦٧] ، ويبدو ان النبهاني وعبدالواحد باش اعيان لم يذكر سوى المحلات المهمة [٦٨].

ويرد في سجلات المحاكم الشرعية اسماء محلات اخرى لاتذكرها المصادر الاخرى ، مثل محلة جعفر الصادق ، والتمانة ، والخشابة ، والصبة (الصابئة) ، والشيخ محمد الكردي ، والشرباتية [٦٩]، وخان زكار، والصفافير[٧٠] ، ودرب الطويل ، والبنا ، والديوانية [٧١].

ولم تكن محلات البصرة جميعها حديثة النشأة ، فبعضها قديم كمحلة السيمر والقبلة والباشا واستمرت في وتيرة تطورها ، بينما تطورت محلات اخرى كالمقام والعشار في العهد العثماني الاخير بسبب موقعها[٧٢] ، وكان قسم منها قرى خارج السور ، مالبث ان دخلت في حدود المدينة بعد تهدمه كمحلات الرباط ، ومناوي لجم [٧٣].

وتألفت ناحية الزبير-على غرار البصرة-من عدة محلات،اهمها محلة الكوت وتمثل مركز المدينة،كانت مسكونة من ال النقيب وال المشري في اواخر القرن الماضي[٧٤] ومحلة الزهيرية،والرشيدية،الشمال ، وربيعة والمجصة والجديدة ، والمسيل وغيرها [٧٥].

واما ناحية ابي الخصيب ففيها سبع عشرة محلة اهمها : البلد ، والغيبة ، والباني ، وحيكور ، وباب ميزان ، وباب سليمان ، وابو خنيف ، وال ابراهيم الكبير ، وال ابراهيم الصغير ، وجلاب ، والعميرية ، والحوطة ، ونزيلة ، وباب طويل ، والقنطرة ، والرهوالي ، وباب رمانة[٧٦] . ولكن سالنامة ولاية البصرة تذكر انها سبع او ثماني محلات دون ان تسميها [٧٧]واما سجلات المحكمة الشرعية فتنظر اليها كقرى لا كمحلات[٧٨] ومنها محلة آل عيد [٧٩].

واما القرنة فان المصادر لاتسعفنا بذكر محلات خاصة بها ، ولعل مرد ذلك الى صغرها ، وقلة عدد سكانها[٨٠] .

الطرق والجسور:

مع انه لايوجد فصل واضح بين المهام الدينية والمدنية في الدولة الاسلامية ، فانه لم يكن من مهام تلك الدولة منذ العهد النبوي الكريم الى العهد العثماني الاهتمام رسميا بالخدمات العامة وحتى انشاء المساجد وصيانتها [٨١].

وربما يعلل هذا الانسحاب بأن مهام الخدمات العامة كانت موكولة الى مؤسسة غير رسمية وهي مؤسسة الاوقاف ، التي حاولت الدول الاسلامية منذ العهد الاموي وحتى نهاية العهد العثماني تنظيم ادارتها بالدرجة الاولى اكثر من الاهتمام بانشاء اوقاف جديدة [٨٢].

من هنا يمكن القول: انه لم يكن في لواء البصرة حتىتأسيس البلدية فيها سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، الا شارع رئيس واحد ، حيث لم تكن سلطة مختصة بالطرق وتعبيدها وصيانتها [٨٣].

وكانت الطرق البرية ضيقة لاتسمح بمرور اكثر من حصان واحد بالاتجاه الواحد[٨٤]،ولم يكن سوى شارع رئيس واحد يربط بين قصر الحكومة ومحلات السيف والقبلة وسوق الجاج والمشراق والسيمر[٨٥].ولكن هذه الشوارع كانت مقسمة الى جادات عمومية وفرعية ، ومع قيام البلديات ووصول الكهرباء اضيئت بعض الجادات الواقعة قرب مساكن الاعيان،ودور العبادة،ومساكن كبار الموظفين وبعض البنايات الحكومية[٨٦].

لقد كان من المهام التي نهضت بها بلدية البصرة تحديث شبكة الطرق ، وشق طرق جديدة ، وتعيين مهندسين ورئيس مهندسين منذ عام ١٣١٤هـ ١٨٦٩م. وكان من اول الطرق الجديدة جادة الرشادية الواصلة بين العشار ومركز البصرة وانجزت على ثلاث مراحل[٨٧] كما قررت البلدية انشاء اثني عشر جسرا على انهار البصرة المتفرعة من نهر العشار والمتصلة بنهر الخورة[٨٨].

وفي الوقت نفسه تشكلت لجنة برئاسة السيد هاشم النقيب لجمع التبرعات لغايات انشاء الطرق وتحسينها[٨٩]. كما انشئت جادات اخرى امام جسر العشار ، واخرى تصل الثكنة العسكرية بجادة العشار لاغراض امنية وعسكرية[٩٠].

وكان الاهتمام باقامة الجسور واضحا فقد اقيم في سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٩م جسر على نهر العشار داخل مركز البصرة ليخفف الضغط على جادة الرشادية [٩١]، واخر في العشار[٩٢] وجسر لربط محلة الرباط بالمقام

على نهر الخندق [٩٣]كما رممت القناطر والجسور الاخرى على انهار البصرة ومنها : قناطر الخندق ، والجبيلة والعشار ، وجسر الغربان، والكزازة (القزازة) ، وجسر السيرج ، وجسر البدعة [٩٤]، كما انشئت جسور اخرى على نهر حمدان ومهيجران وحرب ، وجدد الجسر الواصل بين البصرة والزبير[٩٥]،وانشئت في سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م عدة جسور هي : سراجي البلد ، وسور العالي ، والدويد والبكرية ، والخورة ، والجبيلة ، وقد طرحت تكاليفها على الملاكين المستفيدين من تلك القناطر [٩٦].

وتوزعت طرق المواصلات بين البصرة وقضاء القرنة على السفن والمراكب العثمانية (الرسمية) والاجنبية والاهلية . وبلغ عددها نحو الالفي مركب من مختلف الاحجام[٩٧] ، وهي نفسها التي تنقل تجارة البصرة الخارجية الى بقية انحاء الخليج العربي والهند [٩٨]. ويذكر مرة ان عدد زوارق البصرة وسفنها نحو خمسة الآف زورق صغير عدا السفن الشراعية [٩٩].

الميناء :

تعد بداية فترة حكم مدحت باشا ١٨٦٩م قسما لمرحلتين في تاريخ في ميناء البصرة هما ١٨٣١ ــ ١٨٦٩م والاخرى من ١٨٦٩-١٩١٤ م. امتازت المرحلة الاولى برسو بعض السفن بعيدا عن الشط ، وبرسو اخرى على الشط نفسه ، ثم تنقل البضائع منه الى داخل البصرة عبر نهر العشار[١٠٠] واستمرت هذه العملية حتى نهاية الفترة الاولى بالرغم من التنافس الاوروبي النشط في منطقة الخليج العربي عامة والبصرة خاصة [١٠١].

لقد اسهم الميناء في تطور البصرة العمراني والسكاني ، وكانت اعمال مدحت باشا في المرحلة الثانية من تاريخ البصرة عاملا مهما في تنظيم شؤون المدينة كافة ، فبنى محلة المقام في العشار مما ادى الى ربط البصرة بشط العرب ، وبنى حوضا للسفن داخل شط العرب ليتمشى ذلك مع حجم السفن الجديدة والعمل فيها ، كما استوردت الة لتفريغ حمولة السفن ، وكانت قدرتها على الحمل بما زنته من ٣٠ -٣٥ طنا [١٠٢]، كذلك انشأ مدحت باشا بناية لموظفي الادارة

والمخازن[١٠٣] وسبقت الاشارة الى اهمية انتقال القنصليات والشركات الاجنبية الى هذه المحلة في تطويرها [١٠٤].

ويضاف هنا الى ان شق طريق الرشادية المذكورة آنفا ، وتأسيس شركات النقل الداخلي والاجنبية قد اسهم في توسع البصرة العمراني[١٠٥] ، كما ان اقدام مدحت باشا على تأسيس شركة ملاحة عثمانية واصلاحه للسفن القديمة للعمل بين البصرة وبغداد وبين البصرة والدول الاخرى الى جانب الشركات الاجنبية كشركة لنج وغيرها قد يساهم ايضا في توسع البصرة العمراني[١٠٦] .

وتابع ولاة البصرة بعد فترة الركود في عهد الوالي ناصر باشا السعدون (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م) عملية بناء مراس للسفن القادمة والمغادرة ، مع توفير سفن صغيرة وزوارق لنقل البضائع ، لكنها تتوقف عند مدخل شط العرب بسبب الحاجز الغريني في الشط [١٠٧]، ولعل هذا النشاط هو الذى دعا الرحالة الاوربيين لوصف ميناء البصرة بالحداثة والنمو[١٠٨] . من هنا يلاحظ ان تغير الولاة قد طبع جهود تنمية الميناء بالشخصنة ، دون ان يكون للدولة جهود متكاملة وسياسة واضحة ، كما ان جهود اقامة الموانىء انصبت على مركز السلطنة اكثر منه على الاطراف ، مما جعل العمل في ميناء البصرة بطيئا وغير متناسب مع حجم التجارة المتوقعة فيه[١٠٩] ، علاوة على تحكم الشركات الاجنبية بحركة الميناء ، كونها ذات امتيازات خاصة [١١٠].

الخاتمة :

يستنتج مما سبق ان لموقع البصرة اثر واضح في جعلها محطة تجارية[١١١] , ومركز استقطاب بشري بالرغم من عدم توافر الامكانيات . كما شهدت البصرة توسعا عمرانيا من حيث نشوء احياء (محلات) جديدة ضم بعض القرى الى البصرة ، كما غابت محلات اخرى ايضا بسبب الكوارث الطبيعية والاوبئة ، او تغيرت اسماء اخرى كمحلة سوق الذهب التي اصبحت تسمى سوق الدجاج .

واخيرا يوصي الباحث بان لكل عنصر من عناصر مقدمة المعالم العمرانية ، بحاجة الى دراسة مستقلة ، ومقارنة مع مناطق اخرى كالقدس ودمشق وحلب والقاهرة وغيرها ، مع الاخذ بالاعتبار الظروف المختلفة لكل منها .

الهوامش

(١) انظر عن حالة الدولة العثمانية في عهدها الأخير خاصة ، كتابي عبد العزيز محمد الشناوي (ت ١٩٨٦ م)، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ٤ اجزاء، مكتبة الانجلو المصرية ، (القاهرة، ١٩٨٦م) ح٢ ص ٨٣٠ – ٨٣٧ ،ص١٠٠٣ – ١١٢٢ ، ح٣ ، ص١١٥٣ – ١٢٣٨ ، سيشار اليه تاليا ب: الشناوي ، الدولة العثمانية ؛ قيس جواد العزاوي ، الدولة العثمانية ، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، الدار العربية للعلوم ، ومركز دراسات الاسلام والعالم ، بيروت وثامبا فلوريدا ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م م، ص١٧ –٣٠ ، ٨١ – ١٠٤ ، سيشار اليه تاليا ب: العزاوي ، الدولة العثمانية قراءة جديدة.

(٢) انظر مثلا دراستي د. فلاح حسن الاسدي، "بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لمدينة البصرة كما اوردها الرحالة الاوربيون في العصر الحديث "، دراسة منشورة في مجلة المورد ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، الجمهورية العراقية ، المجلد ١٨ ، العدد ٤، شتاء (١٩٨٩) ، ص٥–٢٥ ، سيشار اليه تاليا ب: الاسدي ، " بعض الجوانب الاقتصادية " ، ودراسته الاخرى : مدينة الصرة كما وصفها الرحالة الاوربيون في العصر الحديث ، في موسوعة البصرة الحضارية ، الموسوعة التاريخية ، المركز الثقافي ، جامعة البصرة ، (البصرة ، ١٩٨٩) ، ص ٣١١ –٣٢٤، سيشار اليه تاليا ب: الاسدي ، مدينة البصرة.

(٣) منيب جمعة يوسف مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء البصرة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١م -١٣٣٣هـ / ١٩١٤م ، (جامعة مؤتة ، ١٩٩٦م) ، سيشار اليه تاليا : مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية .

(٤) انظر من احدث الدراسات حول تاريخ الخليج العربي الحديث كتاب د. عبد العزيز محمد عوض ، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث ، ج٢ نشر بدعم من جامعة اليرموك دار الجيل بيروت ، ومكتبة الرائد العلمية ، (عمان ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م) ، سيشار اليه تاليا ب: عوض ، دراسات في تاريخ الخليج العربي .

(٥) انت إيالة (ولاية بعد ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٤م) البصرة عرضة لتغيرات إدارية بعد عودتها الى الحكم العثماني المباشر سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١م ، فتكون حينا اياله وحينا آخر سنجقية ، وتارة متسلمية مستقلة عن باشوية بغداد او تابعة ... الخ انظر للتوسع حول هذه التطورات : جميل موسى النجار ، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد الوالي مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني ١٨٦٩- ١٩١٧ م ،مكتبة مدبولي (القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١م) ، ص٦٣-٦٧، سيشار اليه تاليا بـ: النجار ، ولاية بغداد ؛ د يقظان سعدون العامر ، ((البصرة في العهد العثماني الاخير)) في موسوعة البصرة الحضارية الموسوعة التاريخية ، المركز الثقافي (جامعة البصرة ، ١٩٩٨م) ص ٢٤٦ ، سيشار اليه تاليا بـ: العامر ، البصرة ؛مرة تاريخ الحياة الاجتماعية. ص٢٥-٣٧.

(٦) الاسدي ، "مدينة البصرة" ، ص٣٣٩-٣٤٤ ؛ المؤلف نفسه "بعض الجوانب الاقتصادية ،ص١٧-٢٠.

(٧) انظر للمزيد ، الاسدي ، "مدينة البصرة" ، ص٣٣١-٣٣٤، المؤلف نفسه "بعض الجوانب الاقتصادية ، ص١٠-١٣.

(٨) عوض ، تاريخ الخليج العربي . ص٣١-٣٤.

(٩) عثمان بن سند الوائلي البصري (ت١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م).مطالع السعود ، تاريخ العراق من سنة ١١٨٨هـ الى سنة ١٢٤٢هـ/ ١٧٧٤م-١٨٢٦ ، تحقيق د. عماد عبد السلام رؤوف ، وسهيلة عبد المجيد القيسي ، وزارة الثقافة والاعلام الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان (بغداد،١٩٩١م) ص٢٢٧-٢٤٢، سيشار اليه تاليا بـ: ابن سند مطالع السعود .

(١٠) عوض ،تاريخ الخليج العربي ص٥١-٥٩؛ الاسدي ، "مدينة البصرة" ، ص ؛ المؤلف نفسه "بعض الجوانب الاقتصادية ،ص.

(١١) عبد القادر باش اعيان ، موسوعة تاريخ البصرة ، خطط البصرة حـ ١، مطبعة شركة التايمس (بغداد ، ١٩٨٨م)، حـ ١، ص٤٧، سيشار اليه تاليا بـباش اعيان ، موسوعة ؛ محمد خليفة النبهاني ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية دار احياء العلوم ، بيروت ، المكتبة الوطنية ، البحرين ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص١٥٨ سيشار اليه تاليا بـ : النبهاني ، التحفة .

(١٢) ج . ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، ٧ ج ، ترجمة مكتب امير دولة قطر ، الطبعة الثانية ، مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر ، الدوحة ، جـ ١ ص ١٩٨ ، ٣٤١ ، جـ ٣ ، ٩٥٢-٩٥٣ ، سيشار اليه تاليا بـ : لوريمر ، دليل الخليج ، ق جغرافي ؛ النبهاني ، التحفة ص ١٥٨ ؛ مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٢٠ .

(١٣) احمد سوسة ، الدليل الجغرافي ، د.ن (بغداد ، ١٩٦٠) ، ص٥٩ ، سيشار اليه تاليا بـ : سوسة،الدليل ؛ النبهاني ، التحفة ، ص ١٦١.

(١٤) سالنامة ولاية البصرة لسنة ١٣١١هـ / ١٨٩٣م ، ص ٥٧ سيشار اليه تاليا بـ : سالنامة ولاية البصرة.

(١٥) لوريمر ، دليل الخليج ، ق جغرافي ج ١ ،ص ٣٤١.

(١٦) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ،ص ٣٤١. -٣٤٧ ، ج٣ ، ص٩٥٣-٩٥٤ ؛ مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٢٠ .

(١٧) محمود طه ابو العلاء ، جغرافية العالم العربي ، دراسة عامة واقليمية ، الطبعة الثانية ، مكتبة الانجلو – المصرية ، (القاهرة ، ١٩٧٧م) ، ص ٥٦٠ – ٥٦١ ، سيشار اليه تاليا بـــ : ابو العلاء ، جغرافية العالم العربي ؛ خطاب صكار العاني ، ونوري خليل نبرازي ، جغرافية العراق ، مطبعة بغداد ، (بغداد ، ١٩٧٩) ص٢٤-٢٧ ، سيشار اليه تاليا بـــ : العاني ، جغرافية العراق ؛ الكسندر آداموف ولاية البصر في ماضيها وحاضرها ، جزآن ، ترجمة د. هاشم صالح التكريتي ، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة الطبعة الاولى (البصرة ١٩٨٢) ، ج ١ ، ص١٣ ، سيشار اليه تاليا بـــ : آداموف ، ولاية البصرة تجد الاشارة هنا الى ان آداموف يذكر ان اقصى ارتفاع هو ٤٠ مترا وليس ٨٠ مترا كما يذكر في المتن اعلاه .

(١٨) العاني ، جغرافية العراق ، ص ٣٢-٣٣.

(١٩) ابو طالب بن محمد خان ، رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربة سنة ١٢١٣ هـــ / ١٧٩٩م ، ترجمة مصطفى جـــواد ، دار القلـــم ، (د.م)، (د.ت) ،ص ٤٠٩ ، سيشار اليه تاليا بـــ: رحلة ابي طالب خان ؛

Abraham Parsons , Travels Asia and Africa, a journy from Scandaroon to Aleppo over the Desert to Baghadad and Bussora. Editor , johne paine Berjew , Bristol, 1808,film No.M.F166/20.p.154.

والمكتبة الوطنية ، بغداد

Subsequently will be cited as: Parsons, Travels .

(٢٠) جاكسون ، مشاهدات بريطاني عن العراق ١٧٩٧م، ترجمة ســـليم طـــه التكريتي (د.ن) (بغداد د. ت) ، ص٣٠ ، سيشـــار اليـــه تاليـــا بـــــ : جاكسون ، مشاهدات .

(٢١) التحفة ، ص ٢٢٥.

(٢٢) عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي (ت ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥م) تاريخ حوادث بغداد والبصرة من ١١٨٦ هـ الى ١١٩٢ هـ ١٧٧٢م-١٧٧٨م ، حققه وقدم له وعلق عليه د . عماد عبد السلام رؤوف،سلسلة خزانة التراث،دئرة الشؤون الثقافي،وزارة الثقافة والاعلام ، الطبعة الثانية (بغداد ، ١٩٨٧م) ، ص ٤٤-٤٥ ، هامش ١٦ سيشار اليه تاليا بـ :السويدي تاريخ حوادث بغداد.

(٢٣) مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص٣١٤، علي الشرقي " بلد الزبير او البصرة القديمة " مجلة لغة العرب ج ٤ ، (١٩٢٧) ، ص٢٧٦، سيشار اليه تاليا بـ : الشرقي "بلد الزبير ".

(٢٤) عبد الرزاق الصانع وعبد العزيز العلي ، امارة الزبير بين هجرتين ، (د. ن) (الكويت ١٩٨٥٩ ص ١٨٥ ، سيشار اليه تاليا بـ : الصانع والعلي ، امارة الزبير .

(٢٥) باش اعيان ، موسوعة ج ١ ، ص ١٧٥ -١٧٦.

(٢٦) لوريمر ، دليل الخليج ق . جغرافي ، ج ٥، ١٩١٢.

(٢٧) آدموف ، ولاية البصرة ، ص٥٣، هامش (*).

(٢٨) بكنغهام . رحلتي ، ج ٢ ، ص٢٥٣.

(٢٩) المصدر السابق نفسه ، ج٢، ص٢٥٢؛ جاكسون مشاهدات ،ص٣٠.

(30) Parsons,Travels, P.155.

(٣١) بكنغهام . رحلتي ، ج ٢ ، ص٢٥٢ . Parsons,Loc, Cit

(32)

(٣٣) الاسدي ، "مدينة البصرة " ، ص٣٢٥ ؛ المؤلف نفسه ، " بعض الجوانب الاقتصادية " ، ص٩ , Travels , P.155

(٣٤) مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية،ص ٣١٣ ، الاسدي ، " بعض الجوانب الاقتصادية " ، ص٩ ؛ المؤلف نفسه , "مدينة البصرة " ، ص٣٢٥ .

(٣٥) الاسدي ، "مدينة البصرة" ، ص٣٢٥ ؛ المؤلف نفسه ، " بعض الجوانب الاقتصادية " ، ص٩ .

(٣٦) مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٣١٣-٣١٤ .

(٣٧) كارستن نيبور ، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة ١٧٦٥ م ، ترجمة سعاد هادي العمري ، مطبعة دار المعارف ، (بغداد ، ١٩٥٥) ص٨ ، سيشار اليه تاليا بـ: نيبور مشاهدات ؛ السير ولس بدج ، رحلات الى العراق ، جزء ان ، ترجمة فؤاد جميل ، دار الزمان ، بغداد (بغداد ، ١٩٦٦) جـ ١ ، ص ١٤ ، سيشار اليه تاليا بـ : بدج رحلة ؛ جيمس بنكغاهم ، رحلتي الى العراق ، جزءان ، ترجمة سليم طه التكريتي ، دار البصري ، (بغداد ، ١٩٦٩) جـ ٢ ص ٢٥٣ ، سيشار اليه تاليا بـ : بكنغهام ، رحلتي ؛ مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٣١٤ .

(٣٨) يعلق منيب مرة على تسمية هذا الباب لدى بنكغهام بانه تحريف العبارة بكر آغا متسلم البصرة آنذاك قائلا : لايجد بين ولاة البصرة ومتسليمها في العهد الاخير سوى بكر بك الذي تولى سنة ١٢٧١ هـ ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٤م ، وان بنكغهام زار البصرة في عام ١٨١٦م فلا يعقل ان يكتب بكنغهام عن حدث غير موجود ، انظر : مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٣١٤ هامش ١٣ ، لكن النبهاني يذكر وجود بكر آغا متسلما على البصرة ١٢٢٩ هـ ١٨١٤م اي قبل مجيئ بكنغهام بسنتين انظر ، التحفة ، ص ٣٣٢ . انظر الخارطة رقم (١) الملحقة بالبحث .

(٣٩) باش اعيان ، موسوعة ، جـ ١ ، ص ١٧٥-١٧٦ .

(٤٠) مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٢٧ ؛ آدموف ، ولاية البصرة ، ص٣٨

(٤١) مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٢٧-٣٠ ؛ آدموف ، ولاية البصرة ، ص٣٨ .

(٤٢) حول مفهوم المحلة انظر مقالتي الموسوعة الاسلامية التاليتين :
Ch pellat , art . Mahalla , E.I^2, Vol . V . p 1220 – 1221 , Editors , art . Mahalla , E.I^2 Vol . V. p . 1222-1223 .

(٤٣) مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٣١٥ .

(٤٤) انظر حول وظيفة المختار مقالة : C.v Findley , art Mukhtar , E.I^2 . p.518 – 21

(٤٥) سجل رقم ٢٨ ، ١٢٩٦ هـ – ١٢٩٧ هـ ، ص ٨٥ ؛ مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٣١٥.

(٤٦) النبهاني ، التحفة ، ص ١٦١ ؛ مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٣١٥ .

(٤٧) آدموف ، ولاية البصرة ، ص٣٨ .

(٤٨) احمد مدحت باشا ، مذكرات مدحت باشا ، ترجمة يوسف كمال حتاتة ، (د.ن) ، (القاهرة ١٩١٣) ، ص ١٧١ ، سيشار اليه تاليا بـ : مذكرات مدحت باشا ؛ آدموف ، ولاية البصرة ، ص٤١ .

(٤٩) مرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية ، ص ٣١٦ .

(٥٠) آدموف ، ولاية البصرة حـ ١ ، ص ٤١ .
J.A Saldanha , The Persian Gulf Precis of Turkish Arabia . Affairs , 1801 – 1950 , vol VI , (Archive Editions ,1986) , p . 201, Subsequently will be cited as , Saldanha , Precis.

(٥١) آدموف ، ولاية البصرة حـ ١ ، ص ٤١ .

(٥٢) المصدر السابق نفسه .

(٥٣) عبد الواحد باش اعيان ، تحفة النصرة في تاريخ البصرة ، جزءان ، مخطوط رقم ١٣٨ د ، المكتبة العباسية البصرة ، ورقة ٢٥ ، سيشار